بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» [البخاري: (5965)، ومسلم: (1051)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«يا أبا ذر! أترى أن كثرة المال هو الغنى؟ إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب؛ من كان الغنى في قلبه فلا يضرّه ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقرُ في قلبه فلا يغنيه ما أكثر له في الدنيا وإنما يضرُّ نفسه شُحُّها»** [صحيح الجامع: (2914)].

قال العلّامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله:

ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنّه قال: **«وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ، يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ، يُغْنِهِ اللهُ»**. [البخاري: (1469)، ومسلم: (1053)]

هذا خبرٌ منه ﷺ، ووعدٌ وترغيبٌ في الاستعفاف والاستغناء عن الخلق.

والفرقُ بين الأمرَين فرقُ ما بين الوسيلة والمقصود، وما بين اللّازم والملزوم، فإنَّ من استغنَى بالله وبرزقه، وما قسم له الله وأعطاه، ولم يلتفِت إلى غيْرِ رَبِّهِ وغيْرِ فضلِهِ وإحسانِهِ: استعَفَّ عن الخلق ولم يُعلِّقْ بهم قلبَه، لا خوفًا ولا رجاءً، ولا طمعًا، ولارغبةً. وهذه المرتبة أعلى المراتب وأشرفها.

ولهذا خلق الله العباد ليعبدوه وحدَه، ويطلبوا الرِّزق والنَّصر منه وحدَه، ويُعَلِّقوا رجاءَهم وطمَعهم وسُؤالَهم بالله وحده، ويَرْضَوْا بقضائه وقَسَمِهِ وقَدَرِهِ ولا يُعَلِّقوا شيئًا من ذلك بالمخلوق، مع بذلهم الأسباب التي يُدركون بها هذه الأمور الجليلة.

ولهذا قال ﷺ: **«وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ، يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ، يُغْنِهِ اللهُ»**(1).

أي: مَنْ اجتهدَ على تحصيل العفَّة والاسْتغناء بحسَبِ ما يقتدر عليه ويستطيعُه من الأسباب، وبذَلَ جُهده وجاهدَ نفسه على ذلك: أعانَهُ الله ووفَّقه ويسَّر له هذا الأمر الذي طَلَبَهُ ورغِبَ فيه وبَذَلَ فيه مقدوره، لعلمه بمحبة الله له، ولعلمه أنَّه بهذا يكسب الرِّزق الحقيقي والمراتب العالية.

فأراح اللهُ قلبَه من تعلُّقِهِ بالخلق، وأراحه من تشوُّش الأسباب وإتيانها على غير مراده، واطمأنَّ قلبُه وحَيِيَ حياةً طيِّبةً سعيدةً.

فإنَّه لا أهنأَ حياة ولا ألذ، مِمَّن قطعَ رجاءَه عن الخلق، واستغنى عمَّا في أيديهم، ولم يتطَلَّع إلى ما عندهم، بل قنَعَ برزق الله واستغنى بفضل الله وعَلِم أنَّ: **(القليل من الرِّزق إذا أكسَبَ القناعةَ خيرٌ من الكثير الذي لا يُغني)**. فليس الغنى عن كثرةِ العرضِ، **إنَّما الغنى في الحقيقة غِنَى القلب**، غناهُ بالله، وبرزقه المتيسِّر عن رجاء الخلق وسؤالِهم والاستعباد لهم في مطالب الدنيا والرضوخ لرِقِّهم.

(1) "وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقا به دون المخلوقين. فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبدا لله حقا حرا من رق المخلوقين، **وذلك بأن يجاهد نفسه على** أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين **بالاستعفاف عما في أيديهم**، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله... وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو **الاستغناء بالله والثقة بكفايته**، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا، فإن من استعف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم، أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه، ويحسن ظنه وثقته بربه، والله تعالى عند حسن ظن عبده به، إن ظن خيرا فله، وإن ظن غيره فله، وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه، فكلما قوي تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس". [بهجة قلوب الأبرار للعلاَّمة السعدي رحمه الله – الحديث الثالث والثلاثون]

وهذه المرتبة العالية كلٌّ يحبُ الوصول إليها والاتِّصاف بها.

ولكنَّ أكثر الخلق متخلِّفٌ عنها، غيرُ عاملٍ بالأسباب الموصلة إليها، ولا متجرِّدٌ من الموانع المانعة من تحصيلها، جهلاً وتهاوناً واشتغالاً بما يضُرُّ عمَّا ينفع، وبالمراتب الدنيئة عن المراتب العليّة.

فإنْ قلتَ: فما هي هذه الأسباب التي تنال بها هذه المرتبة الجليلة؟

قلتُ: قد ذكرها النبي ﷺ في نفس هذا الحديث، وهي قوله: **«يَسْتَعْفِفْ»** و**«يَسْتَغْنِ»**، **أي:** يسعى في ذلك وفي طلبه، ويسلُك كلَّ سببٍ يوصله إليه.

فأوَّل ذلك: مجاهدةُ نفسه على الاتِّصافِ بذلك، ثمَّ سؤالُ الله والالحاح عليه أن يُعينه على الوصول إلى هذه المرتبة.

فإنَّ من اجتهد، واستعان بالله، وألَحَّ عليه في السؤال: لم يخيّبه الله.

فإنَّهُ أمرَ بالدُّعاء، ووعد عليه الإجابة، في جميع الأدعية الَّتي أفضلُها وأعلاها: أن تدعو الله بالتوفيق لمراضيه، وبالحفظ والوقاية عن مناهيه؛ فما خاب من سأله و رجاه، ولا من طمع في تحصيل فضله وخيره و هُداه(2).

(2) "ومن دعاء النبي ﷺ **«اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى»** [رواه مسلم: (2721)]، فجمع الخير كله في هذا الدعاء، فالهدى: هو **العلم النافع**، والتقى: هو **العمل الصالح**، وترك المحرمات كلها، هذا صلاح الدين.
وتمام ذلك بصلاح القلب، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق، والغنى بالله، ومن كان غنيا بالله فهو الغني حقا، وإن قلت حواصله، فليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى القلب، وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة، والنعيم الدنيوي، والقناعة بما آتاه الله". [بهجة قلوب الأبرار للعلاَّمة السعدي رحمه الله – الحديث الثالث والثلاثون]

وإذا علم العبد: أنَّ الله تعالى عنده جميعُ مطالبِ السّائلين، و بيدِه خزائِنُ الخيْرَات والبركَات، وأنّه: ما يفتحُ اللهُ للنّاس من رحمة، فلا ممسك لها، وما يُمسكُ، فلا مرسِل له.

وأنّ النّعم كلها منه، لا يأتي بالحسنات إلا هو. وأنّه هو النّافع الضّار، المعطي المانع. وأنَّ الخلق ليس بيديهم من هذه الأمور شيئ، وأنّهم جميعـًا ـ مهما كانت أحوالهم ومراتبهم ـ فإنّهم فُقراءُ إلى الله في كلِّ شُؤونهم.

من عرف هذا حقّ المعرفة: إضطرّته هذه المعرفة الجليلة الواصلة إلى القلب، إلى تعليق الأمور كلّها على الله، وتعلُّق القلب به، وانقطاعه عن الخلق. وعلِمَ العبدُ أنّه كُلّما قوي تعلُّقهُ وطمَعُهُ في فضلِهِ، أتاه مِنَ الخير والبركة وطِيبِ الحياة ما لا يخطر ببال!

ثـمَّ إذا علـم حقّ العلـم: أنَّ تعلُّق القلب بالمخلوق، يَهبطُ بصاحبه أسفل الدَّركات، ويجعلُه حقيرًا ذليلاً مَهينـًا مُهانـًا، وأنَّ ذلك غيرُ نافعٍ ولا مفيدٍ، بل ضرّه كبير، وشرُّه مستطير.

متى علم العبد ذلك حقّ العلم: لم يركن إلى أحد من الخلق، ولم يرجُهم، ولم يملِكوا عليه ضميره، حتى يكون أسيراً لهم، عبداً ذليلا. يأنَفُ من ذلك كله.

وممّا يعين على الاستعفاف، قوله ﷺ لرجل أوصاه بوصايا، فقال: «وَاجْمَعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» [صحيح الجامع: (742)].

أي: اعزم عزمـًا مصمّمًا لا تَردُّد فيه، على انقطاع أملك وقلبك ورجائك عمَّا في أيدي النّاس، فإنَّ مَنْ يَئِسَ من شيئ استغنى عنه.

فما أنفع هذه الوصية وأحلاها، فإنَّ العزم الجامع المصمّم الذي لا تردّد فيه، خير آلة ووسيلة لإدراك جميع المطالب.

والخلل يأتي:

❋ **إمّا من عدم العزم** ❋ **أو من ضعفه وتردُّده،** ❋ **أو من عدم ثبوته واستمراره.**

فمتى عزَمَ على قطع أمله من النّاس، وقَطَعَ استشراف قلبه وسُؤاله لهم، حصلَتْ له العفَّة التّامّة والغنى التّام.

ومتى رأى نفسه مفتقرةً إلى ما بين أيديهم، متلفتـًا إليه المرَّة بعد المرَّة، فإنَّه لا يزال مُفْتقراً إليهم، ذليلاً لهم، خاضعـًا لهم، وذلك هو الخسران المبين. ومن أيِس من شيئ، استغنى عنه.

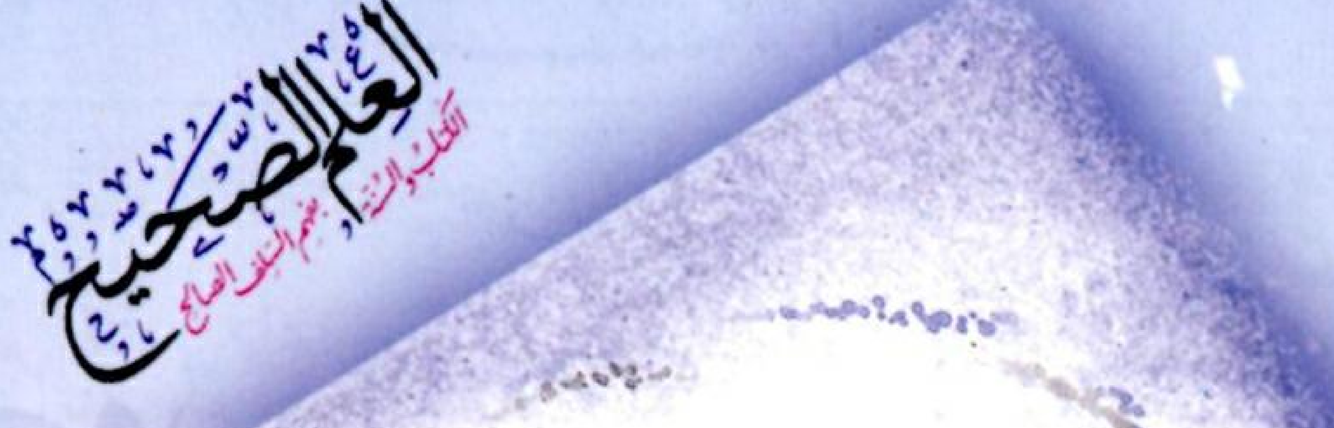
وممّا يوجب للعبد الاستعفاف والاستغناء: علمُه بأنَّ افتقارَه إلى الخلق وتعلُّقَه بهم، واستشرافَه لما بين أيديهم، أو سؤالَهم: يجلب الهمّ والغمَّ، والكدر والقلق. وأنَّ استغناءَه عنهم، وعدم تعلُّقه بهم، يوجب راحة القلب ورَوْحَهُ وطُمأنينته.

ثمَّ إنّه، كُلّما قَوِيَ طمعُ العبد بالله، وقَوِيَ رَجَاؤُه لربِّه، وقَوِيَ تَوَكُّلُه، يَسَّرَ اللهُ لهُ كلَّ عسير، وَهَوَّن عليه كلَّ صعْبٍ، ورزَقَهُ من حيث لا يحتسب، وكفاهُ الهموم كُلَّها، وكَسَبَ الحُريَّة التي لا أرفع منها ولا أنفع.

تمّت بحمد الله

المصدر: (فصلٌ في العفَّة والغنَى) من كتاب: "الريَاض الناضرة والحدائق النيّرة الزاهرة، في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة"، للعلاَّمة عبدالرحمان بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى

http://www.binsaadi.com



العفة والغنى

وطرق تحصيلهما

للشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

(١٣٠٧-١٣٧٦هـ)

